الدور التجاري لمدينة
ورقلة في العصر الوسيط

إعداد: أ. محاضر بوطارن مبارك
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة الجزائر
أ. محاضر خلف محمد نجيب
معهد الآثار، جامعة الجزائر

مقدمة:

كثيرة هي المدن الجزائرية التي كان لها دور لا يستهان به بين مدن بلاد المغرب في العصر الوسيط، وما تلمسان، وتاهرت، وأشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، وغيرها كثير إلا أسماء لعدد قليل من ذلك الزخم الكبير من المدن الجزائرية التي ذاع صيتها بين مختلف المدن في حقبة ما من الحقب التاريخية، ولكن هذا الماضي التليد لهذا الكم الهائل ما زال يحتاج إلى من يعيد له الاعتبار، وما هذه البادرة إلا محاولة منا لإبراز إحدى الجوانب المهمة لمدينة ورقلة عسانا أن نقدم إضافة جديدة إلى تاريخ هذه المدينة.

ورقلة نقطة استقطاب بشري في وسط صحراوي:

تعد منطقة ورقلة من المناطق القليلة في الصحراء التي اجتمعت فيها الشروط الطبيعية اللازمة لقيام المجتمع البشري،[1] علما أن الواحة تقع في بيئة صحراوية قاحلة تعتبر من أكثر صحاري العالم جفافا .

لقد وصفت الصحراء بكثير من النعوت، فقد قيل عنها أنها الفضاء الواسع، وقيل عنها أيضا "أنها المستوية في لين وغلظ دون القفر". إنّ هذا الوصف ينطبق تماما على الصحراء الجزائرية حيث تعد من أكبر الصحاري وأوسعها في العالم، ذلك أنها

1 J.J. Letilleux, Ouargla cité saharienne, p.3.

تمتد على أكثر من مليون كيلومتر مربع وهي جزء لا يتجزأ من الصحراء الكبرى التي تمتد غربا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر شرقا، ومن جنوب "السفانا" في بلاد الزّنج إلى سلسلة جبال الأطلس الصحراوي شمالا، بل أنها تمتد في بعض المناطق من البلاد المصرية والليبية إلى البحر[1].

لا يهمنا هنا التحديد الجغرافي لهذا الإقليم الهائل والتعمق فيه لأنه ليس هو هدف بحثنا، بل القصد من وراء ذلك معرفة بعض خصائص هذه المساحة الشاسعة [2]، ومدى تأثيرها السلبي أو الإيجابي في نشأة الواحة ومدينتها وتطورهما.

يمتاز سطح القشرة الأرضية لمنطقة الصحراء بعدم تجانسه من ناحية التضاريس، فهو مكوّن من هضاب، وجبال ذات قمم عالية مثل الهقار والتبستي، ومنخفضات كثيرا ما تكون تحت مستوى سطح البحر بعشرات الأمتار مثل منخفض شط ملغيغ وشط الجريد [3].

المنـــاخ الصحراوي:

يمتاز مناخ الصحراء عموما ومناخ منطقة ورقلة على وجه الخصوص بقلة أمطاره،[4] فقد تمرّ السنون الطوال دون أن نسجل نزول قطرة من المطر. وهذا ما يجعل معدل تساقط الأمطار في ناحية ورقلة لا يتعدى في بعض السنين 100 ملم وأنّ كمية تساقط الأمطار في السّنين الأخرى لا يرجع على الزراعة بالفائدة الكبيرة وذلك بسبب سرعة تبخرها بفعل الحرارة الشديدة، أو نفاذها إلى الأعماق بسبب طبيعة الأراضي الرملية التي تساعد على تسرب المياه بسرعة.

ومن خصائص مناخ المنطقة أيضا تميزه بالفارق الكبير في درجات الحرارة بين فصلـــي الصيف والشتـــاء، وبالمدى الحراري الواسع بين الليل والنهار، حيث تنحدر درجة الحرارة أحيانا إلى أقل من 20 درجة مئوية تحت الصفر في الليالي الشتوية القارسة ويصعد الزئبق في عز الصيف ليسجل أكثر من 50 درجة مئوية تحت الظل نهارا.

---

1 Rey. Capot, le Sahara français, p u f, 1958, p. 13.

2 إن حدود الصحراء من الناحيتين الشرقية والغربية دقيقة وواضحة حيث يحدها على التوالي البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، في حين نجد حدودها الشمالية والجنوبية صعبة التحديد لعدم وجود حواجز طبيعية واضحة تفصلها عن البيئات الجغرافية الأخرى وتقف حدا فاصلا، بل بالعكس فإن الصحراء مازالت تزحف على حساب الأراضي الصالحة للزراعة في كلا الاتجاهين.

3 Rey. Capot, le Sahara Français, p. 43.

4 Ibidem, p. 43 - 44

أما الرياح الصحراوية فإنها عادة[1] ما تكون حارة وجافة، تعمل على تعرية التربة وتفتيت الصخور، وعلى تجفيف الرطوبة التي خلفها الغيث، فتزيد من صعوبة حياة الإنسان والحيوان على السواء، ويصبح نمو النبات من الأمور المستعصية. فهذه الواحات وما يزرع في ظلها من أشجار مثمرة، وخضراوات، ومحاصيل زراعية أخرى متنوعة، ورغم ما توفره لها أشجار النخيل من مناخ لطيف، فهي تحتاج إلى كميات هائلة من المياه خاصة في فصل الصيف، بل وتتطلب أحيانا الإكثار من سقيها خاصة أثناء فترة هبوب رياح الجنوب المحرقة، وأن الإغفال عن العناية بها ومتابعتها قد يؤدي إلى تلفها.

إن وقوع الصحراء الجزائرية بمحاذاة سلسلة **جبال الأطلس** الصحراوي جعلت من هذه الأخيرة خزان مياهها[2]، فمنها **تنبع بعض الوديان** والجداول التي تؤدي ـــ عند وصولها إلى مصبها الذي عادة **ما يكون في منطقة السهوب** أو الصحراء ـــ إلى ظهور مناطق جغرافية تمتاز بكثرة **غطائها النباتي** ووفرة إنتاجها. أضف إلى هذا أن هذه المياه هي التي تبعث الحياة **في المناطق المحاذية** لمجاري الأودية فتظهر فيها مساحات رعوية شاسعة دائمة تشجع على **ظهور** النشاط الرعوي في تلك المناطق، وهذا بدوره يؤدي إلى استقرار الإنسان بها. [3]

لقد اهتم المؤرخون والجغرافيون العرب منذ *أقدم* العصور بالصحراء، فكتبوا عنها الكثير، و لم يتركوا منها مجالا إلا وخاضوا فيه، فكان من نتائج ذلك أن قدموا لنا سجلا مهما ضمنوه من المعلومات القيمة، والأوصاف الدقيقة، والملاحظات المهمة، على فيافيها وواحاتها وسبلها ومسالكها وقبائلها وحيواناتها ما يجعل الباحث في أي جانب من هذه الجوانب لا يستغني عن العودة إليها والاستفادة منها للأسباب السابقة.

إن مدن الصحراء مثل ورقله، وسجلماسه، واودعوست، وتمبكتو، مدن نشات منذ القديم، ونمت في العصر الإسلامي فاصطبغت بصبغة الحضارة الإسلامية[1] التي

---

1 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، 1983، ص 158.

2 Jean Despois, la bordure saharienne de l'Algérie orientale, R. A, 1942, p. 200, ss.

3 هذا ما تم ملاحظته في زياراتنا الاستكشافية.

– أنظر إسماعيل العربي، المدن المغربية. وانظر وصف الجغرافيين العرب لبعض هذه المدن.

1 C. Vanocker, Tegdaoust II, recherches sur Aoudaghost, fouille d'un quartier oriental. Laforgue, notes sur Aoudaghost, D.T.S.G.A. 1922, p.31.

ساهمت مساهمة كبيرة في ربط أواصر المحبة وتبادل المنفعة بين شطري إفريقيا،[2] فهذه المدن هي مقصد للركبان يأتيها التجار من كل مكان ويقصدها طالبو العلم والمعرفة متى تناهى إلى مسامعهم نبأ نبوغ شخصية علمية ما في مجال من مجالات العلم فكان لهذا النشاط أثر كبير على نمو هذه المدن وتطورها.

لقد ارتبطت حياة الإنسان في واحة ورقلة بعناصر أساسية كانت له عونا على الاستقرار في هذه المنطقة والاستمرار في نشاطه، ومن أهم هذه العناصر:

المـــــاء:

إن توفر بعض مصادر المياه في الطبقات الجوفية من الأرض وعلى سطحها، ساعد سكان الصحراء على تنمية هذه المنطقة الجغرافية الجدباء بإنشاء بعض الواحات، ذلك أن مياه الأمطار قليلة ولا تمكن من ظهور زراعة بعلية. ومع ذلك فإن مياه الأمطار على قلتها تسبّب من حين لآخر بعض الأضرار لسكان المنطقة فعادة ما يتبع هطول الأمطار والسيول التي تتبعها يقظة الوديان وفيضانها، الأمر الذي ينتج عنه[3] عواقب وخيمة تعود على الزرع والضّرع والإنسان على السواء. فقد تغرق مناطق بأسرها في برهة وجيزة من الزمن في الفيضانات فيتضرر من هذه الظاهرة البنيان المقام بمواد هشة، وقد تخرب القرى والمداشر بأكملها. وكأن سكان الواحات يعيشون على النقيضين، فإما الموت بالعطش بفعل الحرارة الشديدة، وإما الغرق بسبب السيول التي تخلفها الأمطار أحيانا محولة بذلك الوديان الصغيرة التي كثيرا ما تشغلها جداول قليلة المياه لتصبح على حين غفلة أنهارا كبيرة مخربة، قد تأتي على التجمعات السكنية فتجعلها أثرا بعد عين.

ورغم كلّ هذه الأضرار التي تلحقها الأمطار بالسكان، فإن هطولها في الفيافي يؤدي إلى تغيير وجه الصحراء فتصبح الأراضي القاحلة التي يغلب عليها الطابع الصخري ومناطق الحمادة والعرق[4] مناطق خضراء مليئة بالأعشاب والأزهار، يقصدها البدو لرعي قطعانهم مما يساعد على بعث الحياة من جديد في نفوس هؤلاء السكان ومواشيهم.

---

2 F. De la chapelle, esquisse d'une histoire du Sahara occidental, in Hesperis, 1930, t XI, p 39.

3 J .Despois, la bordure saharienne de l'Algérie orientale, R .A, 1942, p.201.

4 Rey. Capot, le Sahara Français, p138 et s. 158 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، ص

لقد دفعت الظروف الطبيعية والمناخية القاسية سكان منطقة ورقلة إلى استغلال المياه الجوفية منذ القدم، فتمكنوا من استخراجها عن طريق حفر الآبار الارتوازية.

الآبار الارتوازية:

تستعمل هذه التقنية بكثرة في ناحيتي ورقلة وسدرا ته،[1] حيث تحفر الأرض حتى مستوى احتباس المياه التي تكون عادة مضغوطة ضغطا عاليا، وعند كسر الحاجز الحجري تندفع هذه الأخيرة إلى الخارج بفعل قوة الضغط ولا يحتاج الإنسان إلى وسائل حديثة لاستخراجها.

إن عملية حفر الآبار الارتوازية عملية معقدة تتطلب من القائمين بها خبرة طويلة، ومهارة جيدة، وشجاعة كبيرة، وصبرا على المشاق. الأمر الذي يجعل من الحفار الذي لا تتوفر فيه هذه الصفات عرضة للأخطار الكبيرة،[2] ذلك أن الحفر في الرمل والطين يعد من الأعمال غير الشاقة مقارنة ببعض التضاريس الأخرى التي يدخل في تكوينها الحجر، غير أنه من الناحية الأمنية لا يخلو من الأخطار بسبب هشاشة الطبقات الأرضية المكونة من هذه المواد والتي تتميز بعدم تماسكها خاصة عندما تكون جافة مما يجعل إمكانية انهيارها على العامل وهو يقوم بعملية الحفر أمرا واردا، وتزيد درجة الخطورة عندما يصل العامل إلى مستوى الطبقة الصخرية التي تحجز المياه، فإذا لم يكن متحكّما بصفة جيّدة في عملية الحفر في هذه المرحلة متمرسا فيها، فقد تندفع المياه بسرعة هائلة مباغتة إياه وهو ما يزال بقاع البئر مما يؤدي إلى هلاكه إذا لم يستدرك الموقف بسرعة.

إرتباط حياة الاستقرار في الصحاري بالنخلة:

إذ كانت حياة التنقل والترحال تعد السمة الغالبة على حياة سكان الصحراء بفعل الظروف الطبيعية التي لا تشجع على الاستقرار،[3] فإن هذا لا ينفي وجود بعض البقاع القليلة منها الصالحة لحياة الاستقرار والزراعة لتوفر الماء بها ووجود التربة الخصبة المنتجة لمختلف المحاصيل الزراعية. ومع ذلك فإن حياة الاستقرار والعمل الزراعي تبدو وكأنها ضربا من ضروب تدجين الطبيعة لأسباب نذكر منها:

1 أما في الجهة الغربية من الصحراء في ناحيتي أدرار وبشار فتستعمل تقنية الفقارة أو القطارة -J. J. Letilleux, Ouargla, p. 60.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, pp.60-61.

3 هذه الظاهرة هي غالبة في الصحراء أنظر:

- Rey. Capot, le Sahara français. p51.
- J. Letileux, Ouargla, pp.102-117.

أن الأرض كثيرا ما تكون فقيرة للمواد العضوية.

إن النسبة العالية للملح التي تحتويها التربة لا تساعد على الزراعة.

إن المناخ لا يساعد أيضا على عملية الإنبات لجفافه واتساع الفارق في دراجات الحرارة بين الليل والنهار من جهة وبين فصلي الشتاء والصيف من جهة ثانية، فقد تنخفض درجة الحرارة في الليالي الشتوية إلى أقل من 20 درجة مئوية تحت الصفر،[1] وقد ترتفع لتصل 50 درجة مئوية تحت الظل أو تفوقها أحيانا في عز أيام الصيف ، زدّ على هذا كله شدة الرياح وعتوها وما تتميز به من حرارة وجفاف، وحملها للأتربة والرمال،[2] ويكفيك دليلا على ذلك أن تقوم بزيارة إلى هذه المناطق أثناء فترات هبوب هذه الرياح لترى بأم عينك معاناة سكان هذه المناطق وكيف تصبح السواقي وغابات النخيل، بعد مرور العواصف الرملية، حيث تضيع نتائج كدّ السنين الطوال في برهة كلمح البصر، فيردم الأخضر واليابس، وتقتلع الحواجز المصنوعة من جريد النخل أو نباتات أخرى والتي أقيمت لغرض حماية هذه المحاصيل، وتردم الآبـــــار وتطمس السواقي وتعود الطبيعة الرملية إلى ما كانت عليه في السابق. وقد تتكرر هذه الظاهرة عدة مرات في السنة لتزيد من شقاء المزارعين، وربما لولا شجرة النخيل التي تربطهم بها علاقة منذ أقدم العصور لاضطروا إلى الهجرة بعيدا عن هذه الظروف القاسية. هذا وإن تمكّن الفلاح رغم كل هذه الصعاب من استصلاح الأرض وزرع المحاصيل، فهناك آفات أخرى تنتظره قد تضيع عليه نتائج مجهوده إن لم يبادر إلى القضاء عليها بالوسائل المتاحة له منها مرض البيوض وآفة الجراد، فالأول يقتل النخلة ببطء، والثاني يلتهم كل أخضر ويجعل النخلة لا تثمر لسنين عديدة. [3]

إذا كانت طبيعة تركيبة القشرة الأرضية في واحة ورقلة رملية طينية، فإن هناك مساحات أرضية شاسعة من الرمل غير ممزوجة بالطين، زد على هذا أن الأرض تفتقر إلى المواد العضوية، الأمر الذي يجعل استغلالها كل سنة أمرا غير مجد مما يحتم على المزارع الاستغناء عن استغلالها مرة كل سنة أو سنتين [4] إذا ما تمت زراعتها

---

1 Rey. Capot, le Sahara français, p. 51.

2 M. Tarry, excursion archéologique dans la vallée de l'oued Mya, revue d'ethnographie II, 1983, P. 30.

يتكلم صاحب هذا المقال عن سرعة تغطية الرمل لموقع مدينة سدراته.

3 Rey. Capot, le Sahara français, p.335 et s.

4 Rey. Capot, Le Sahara français, p. 305.
– C, L, Bataillon, Le Souf étude de géographie Humaine, 1955, p. 73.

بمختلف الحبوب أو الخضروات حتى يعطيها فرصة لاسترجاع خصوبتها. وقد جرت العادة أن يعمد الفلاح إلى تسميدها بكميات هائلة من الأسمدة العضوية المختلفة، ومع تطور التقنيات الزراعية هاهو اليوم يقدم لها بعض الأسمدة الكيماوية، وتجدر الإشارة هنا أن الأراضي الزراعية في المنطقة من النوع الخصب، خاصة إذا ما زدنا للمناطق الرملية في الواحة كمية من الطين[1] وعملنا على مزجها مع الرمل بنسبة معينة، الأمر الذي يجعلها أقل ترشيحا لمياه السقي، ويجعل الرمال أكثر تماسكا فلا تتطاير مع هبوب أضعف ريح. والعكس صحيح إذا ما أضفنا الرمل أيضا للأراضي الطينية، فهذا العمل يمكنها من التنفس وترشيح المياه الزائدة عن حاجتها والتي تكون في هذه المرحلة قد أصبحت مالحة بعد السقي، أي بعد تعاملها مع الأرض المالحة مما يضر ببعض المحاصيل الزراعية، وهذه الطريقة أيضا تجعل من الأراضي أقل انشقاقا، ذلك أن الأراضي الطينية عند جفافها تؤدي أيضا إلى إتلاف جزء هام من النباتات الصغيرة بسبب تركيبتها.

إن وفرة المياه العذبة، والمناخ الحار الجاف، والتربة الرملية أو الكثيرة الرمل، سيجعل من النخلة شجرة الواحة بدون منازع من حيث المساحة المزروعة، ولما لها من مكانة رئيسية في اقتصاد الواحة. والنخيل يتكاثر وينتج التّمر في أغلب مناطق الصحراء ماعدا تلك الموجودة في منطقة الأهاقار التي يزيد ارتفاعها عن 1400م على مستوى سطح البحر ، أو في المناطق القريبة من المحيط الأطلنطي والمشبعة بالرطوبة.

يعد التمر الغذاء الأساسي لسكان الصحراء بدوهم وحضرهم على السواء منذ قديم الأزمان، والحياة بدونه كانت فيما مضى شبه مستحيلة. وإذا كانت النخلة من النباتات الصحراوية الأصيلة، فإن تاريخ ظهور النخلة في هذه المنطقة لا نعرف عنه الكثير، ومع ذلك فقد عرفها إنسان ما قبل التاريخ واستفاد من ثمارها، وعند ظهور الزراعة في ورقلة عمد إلى زراعتها آنذاك بالتقنيات المتوفرة لديه.

لقد تعلم هذا الإنسان كيف يزرع النخل وكيف يلقح النخلة الأنثى بوضع حبوب الطلع الذكرية (الذكار) فيها، فتمكّن من توسيع مجال إنباتها.

1 هـــذا ما يفعله عادة من يريد استصلاح تركيبة أرضه وخاصة لمن يريد زراعتها بغير النخيل.

والجدير بالذكر هنا أن النخيل تتكاثر عادة بطريقتين هما [1]:

1- العلفة: وهي طريقة غير مجدية لإعطائها عددا متساو من الذكور والإناث.

2- الجبارة: تعتبر هذه الطريقة أكثر الطرق استعمالا لأن الفلاح له حرية اختيار جنس النخلة التي يريد زراعتها. وتتلخص هذه الطريقة في قيام الفلاح بترع النخلات الصغيرة التي جرت العادة على إنباتها في أصل الساق الأم، ويقوم بإعادة غرسها في مناطق أخرى فاسحا لنفسه حرية اختيار البراعم التي يراها مناسبة. من المتعارف عليه أن شجرة النخيل لا تعطي ثمارها إلا بعد مرور عدة سنين عن غرسها، وعند بلوغها سن العطاء يسهر الفلاح على تذكيرها كل عام حيث أثبتت التجربة أن محصول النخلة المذكرة بيد الفلاح تعطي محصولا رديئا من الناحية الكمية والنوعية، وعملية التذكير تبدأ في وسط شهر مارس وتنتهي في أواسط أبريل، وإن نضوج الثمار يبدأ في شهر سبتمبر (قبله بأيام أو بعده بأيام) على حسب المناطق، وعلى حسب نوعية النخلة علما أن أنواع التمور كثيرة ومختلفة. ذلك أن كل شجرة نخيل لها خاصياتها المميزة، فبعضها لا ينبت في مناخ معين كالنوع المسمى دقلة نور، وبعضها يتأقلم مع مناخات لا تتأقلم معها هذه الأخيرة.[2] وعلى العموم فإن النتيجة التي يمكن الخروج بها من هذا العرض أن النخلة هي رمز واحة ورقلة وعماد اقتصادها، فقد ساهمت لا محالة في استقرار السكان بهذه الواحة وساعدت على تطور القصر.

لمحة تاريخية عن مدينة ورقلة:

تعد مدينة ورقلة من المدن الصحراوية القليلة التي استطاعت أن تنمو وتتطور بصفة مستمرة على مدى حقبات تاريخها الطويل، ويرجع سر هذا النجاح إلى كون المدينة قد استطاعت أن تساهم بصفة نشطة في صناعة القرار ووضعه، الأمر الذي جعلها من أهم المراكز التجارية في القرون الوسطى وهي اليوم من أهم الولايات البترولية.

---

1 للمزيد حول هذا الموضوع راجع بحث "قوفي" Gouvet الذي خصصه لهذا النوع من الزراعة.
- C. Gouvet, la culture du palmier au souf, R.A, 1914.

2 - Rey. Capot, le Sahara français, p. 304.
- voir aussi, Gouvet, la culture du palmier au souf, in R.A, 1914, p.73.
- C, L, C, Bataillon, Le Souf étude de géographie humaine. 1955.

المـــــوقع:

تقع مدينة ورقلة بقصورها العديدة في الجنوب الشرقي للجزائر، وتبعد عن مدينة الجزائر العاصمة بمسافة 800كيلومتر (عبر الطريق الوطني رقم 1)، أما بعدها عن البحر الأبيض المتوسط فيقدر بحوالي 575 كيلو متر تحليقا في الجو. إن مصطلح ورقلة هو اسم لكوره قبل أن يصبح اسما لقصر، وهو عنوان لواحة واسعة تمتد على أكثر من ألفي هكتار،[1]* فهي تقع وسط سهل واسع يخترقه وادي ذو المائة جدول.

إن حوض ورقلة حوض شاسع تحدّه من جهة الغرب هضبة أو (حمادة)[39] تمتد حتى منطقتي متليلي ووادي ميزاب وتشتمل هذه الهضبة على عدة تلال مزقتها العوامل الطبيعية من (أمطار وسيول، ورياح، وحرارة). الأمر الذي جعلها تظهر للمستكشف كأنها صورة من صور القمر.

يمتاز حوض ورقلة بعرض لا يزيد عن أربعة كيلومترات قرب قارة كريمة التي تبعد بـــ11 كيلومتر جنوب القصر، ثم يبدأ بالاتساع ليصل عرضه إلى 12 كيلومتر قرب القصر، ثم يضيق من جديد عندما يصل إلى نقوسة على بعد 20 كيلومتر من ورقلة [2].

الموضـــــع:

يوجد قصر ورقلة على تله ترتفع بحوالي 130 متر عن مستوى الحوض،[3] تحيط بها غابة كثيفة من النخيل تمتاز بخضرتها الأبدية التي تلطف جو القصر، وهي تسقى بواسطة المياه الجوفية المتوفرة بكثرة بالمنطقة. لقد كان لموقع مدينة ورقلة دورا أساسيا في نمو المدينة وتطورها، فقد جاء موقع الواحة بين العرقين الشرقي والغربي المنيعين، واللذان يصعب على القوافل التجارية اجتيازهما، بل ويستحيل في أغلب الأحيان، ليجعل منها نقطة رئيسية ومحطة مهمة في طريق القوافل العابرة للصحراء.

والجدير بالذكر أيضا أن المدينة تقع على حدود مناطق البدو الذين يحترفون تربية المواشي المختلفة التي تأتي على رأسها الإبل ثم الغنم بدرجة أقل.لكل هذه

---

1 Rey. Capot, le Sahara français, p.16.

* تضاعفت المساحة الزراعية عدة مرات إثر عمليات الاستصلاح.

-J. Letilleux, Ouargla, p 1.

2 Argean, Excursion archéologique dans la vallée de l'oued Mya, revue d'ethnographie, 1983.

3 إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى، ص 158-159.

الأسباب التي سبق ذكرها، وإضافة إلى ما جاء حول المدينة في المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، فإن قصر ورقلة الذي يعد النواة الأولى للمدينة قد أدى دورا حيويا لا يستهان به في تاريخ المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية خاصة، وفي تاريخ المغرب الإسلامي على وجه العموم، كأهم ملتقى للتجارة مع إفريقيا السوداء على مر العصور.[1]

فالمدينة استطاعت أن تنعم عبر حقبات التاريخ بعلاقات وطيدة مع مدن المغرب والمشرق الإسلاميين، ومع مراكز التجارة في إفريقيا جنوب الصحراء، وقبل أن نفتح الباب للتعرّف على أهم مجالات هذه العلاقات، نرى من المفيد إعطاء لمحة وجيزة عن تاريخ المنطقة الذي يرجعه المختصون إلى مرحلة ما قبل التاريخ.

ورقلة في حقبتي ما قبل التاريخ والقديمة:

لقد اكتشف علماء الآثار العديد من الشواهد التي تدل على أن منطقة ورقلة قد عرفت استقرار الإنسان بها منذ عصور ما قبل التاريخ،[2] وتتمثل هذه الشواهد في العديد من الأدوات التي استعملها إنسان هذه الحقبة من حجارة مكشوطة وعظام ...الخ[3] علما أن سكان المنطقة كانوا من السود أو من الأثيوبيين[4] وإن المنطقة كانت في هذه الفترة أكثر رطوبة وأمطارا، مما جعل أنهارها غزيرة وأراضيها خضرة تكسوها الأعشاب والأشجار، تعيش فيها مختلف أنواع الحيوانات من فيلة وخنازير وأحمرة وحشية.[5]

أما عن نشاط الإنسان الأول الذي سكن هذه المنطقة فقد كان يعيش على الصيد وقطف ثمار الأشجار، الأمر الذي جعله يتنقل على ضفاف هذه الوديان بحثا عن غذائه، باعتبار أن الوديان كانت تمثل نقاط استقطاب للحيوان والإنسان، لما توفره أشجارها من غذاء وما تحتويه أيضا من مياه تقصدها قطعان الحيوانات للارتواء فتكون بذلك من الأماكن المفضلة عند إنسان ما قبل التاريخ للصيد والقنص.

---

1 Tadzeuf lewiki, la répartition géographique des groupements Ibadites dans l'Afrique du nord au moyen age, R.O ,T21 , 1957, p. 31.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 5 – 6 -7.

3 J. Ponet, Aux sources de l'histoire nord africaine, prospérité et décadences Ifrikiyennes, les cahiers de Tunisie, N° 9, 1961.

4 St. Gsell, Le passé de l'Afrique du Nord, p.488 et s.

5 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 6 et s.

ومع مرور الزمن وتكاثر عدد السكان في المنطقة، بدأ الإنسان في واحة ورقلة يتعلم كيفية زراعة النخيل، وبدأ أيضا يكتسب تقنيات جديدة للّري، الأمر الذي مكنه في النهاية من إنشاء الواحة عن طريق اكتناز التجربة وتنميتها، وعندما أصبح الإنسان مزارعا بدأ يبحث عن مواضع للاستقرار فاختار بعض الأماكن لذلك.

ورغم محاولات الدارسين التي تناولت تاريخ ظهور سكان البربر بهذه المنطقة، إلا أننا مازلنا إلى يومنا هذا نجهل الكثير عن كيفية وصول البربر إلى المنطقة وكيف تم استقرارهم بها،[1] اللهم بعض المعلومات القليلة التي تفيدنا عن علاقات سكان منطقة ورقلة مع الفنيقيين والقرطاجيين والرومان، ويبدو أن هذه الشعوب كانت تدرك أهمية المنطقة في التجارة القارية، وربما كان ذلك سببا في وصول بعض أخبار هذا النشاط إلينا. وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية القديمة، فإننا لا نجد بها ذكرا للدور الذي أدته المنطقة في عهدي الوندال والبيزنطيين، اللهم بعض الإشارات البسيطة التي أوردها هؤلاء المؤرخون في سياق كلامهم عن مواضيع أخرى، وللعلم فإن البيزنطيين رغم محاولاتهم للسيطرة على هذه الجهة، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك وبقيت خارج حدودهم.

ورقلة في الفترة الإسلامية:

يعد الشريف الإدريسي[2] واحدا من الجغرافيين العرب الذين تحدثوا عن ورقلة ووصفوها بأوصاف أقل ما يستخلص منها أنها كانت مدينة ميسورة الحال حيث يقول في هذا الصدد:" وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلادهم، وهم وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام ... ومن ورجلان إلى غانه ثلاثون مرحلة ". وبعد هذا الوصف الذي يعبر عن ازدهار اقتصاد ورقلة، تمر القرون ولا نجد عن أخبارها في المصادر التاريخية والجغرافية إلا الشيء القليل، ربما لأنها أصبحت تلعب دورا أقل أهمية مما كانت عليه من قبل خاصة بعد الغزو الهلالي الذي عرفته المنطقة وانتشار قبائلهم في السهول والصحاري، وتمكّنهم من المسالك التجارية، وما كان يصدر عنهم من مضايقات لسكان هذه المناطق[40] ممّا صعّب عمل التجار، مما يرجح فكرة عزوفهم عن ممارسة تجارة القوافل، والحد من النشاط

---

1 F. De La Chapelle, Esquisse, p. 40.

2 الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص 88 - 120

40 Paul - Louis Cambuzat, l'évolution des cités du tell en Ifriqiya du VII° au XI° siècle, O P U, tome I, 1986, p. 141 et s.

الاقتصادي، الأمر الذي جعل المنطقة تمر بفترة ركود اقتصادي شأنها في ذلك شأن بقية مناطق بلاد المغرب التي عرفت المصير نفسه في تلك الفترة[1].

لقد أشار الحسن الوزان في كتابه إلى مدينة ورقلة، وخصها ببعض المعلومات والأوصاف المهمة نذكر منها على سبيل المثال نعته لها باسم غرغالة[2]، وهذه الأوصاف تصور لنا حالة القصر على وجه الخصوص والناحية بأكملها في القرن السادس عشر أي زمن المؤلف على وجه العموم.

يقول هذا الجغرافي عن ورقلة: "مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا، لها سور من الآجر النيئ ودور جميلة، وحولها نخل كثير. ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى. الصناع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا، لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان.

القمح واللحم نادران جدا، وتؤكل الجمال والنعام. وأغلب الناس سود لا بسبب المناخ ولكن لأن لهم جواري سوداوات يتسرون بهن، فيأتين بأولاد سود. وأهل وركلة كرما ظرفاء، يستقبلون الغرباء استقبالا حسنا، لأنهم لا يملكون غير ما يأتيهم به هؤلاء، كالقمح واللحم والملح والشحم والمنسوجات والأقمشة والأسلحة والسكاكين، وكل ما يحتاجون إليه على الإجمال.

لوركلة أمير يشرفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبي إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدي إلى جيرانه الأعراب خراجا مرتفعا".[3]

أما العياشي (1037-1090هـ/1628-1679م)[4] الذي زار المدينة، فقد قدم لنا وصفا وافيا لها جاء فيه:" فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بيا — المدينة المسمى بيا-السلطان وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة

---

1 J. J. telilleux, Ouargla, p 106 et s.

2 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، ص 158

3 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ج 2، بيروت، ط2، 1983، ص 136.

4 *مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، س .و. ن .و. ت، ص* 17

من الأعراب (الأرباع). قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع، اشترى الناس منهم ما احتاجوا بأرخص الأثمان، وقدمت أخرى بعدها بيوم تعمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن[1]، واشترى الحجاج غنما كثيرا حتى كأن تلك الليالي الثلاثة التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم".

يجدر بنا التنويه هنا أن العياشي مثله مثل من سبقه من المؤرخين قد تكلم عن رخاء المدينة وغناها، وعن ثراء سكانها، وعن علاقة المدينة بريفها، فالأعراب يتوافدون عليها بكثرة لبيع منتجاتهم الريفية من لحم ومشتقات الحليب وشراء ما يحتاجونه منها، بمعنى أن هناك نشاط اقتصادي تكاملي يربط المدينة بأريافها .

يواصل العياشي وصفه لما شاهده بالمدينة،[2] فبعد التحدث عن تأديته لصلاة الجمعة في جامع المالكية ـــ وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على وجود جامع لغيرهم في المدينة (أي لأتباع المذهب الإباضي) ـــ يرجع مرة ثانية ليصف لنا ما شاهده عندما صعد إلى أعلى المئذنة المشرفة على أرجاء المدينة كلها وهو ما عبر عنه بهذه الكلمات: "...فنظرنا إلى أطرافها ووسطها وكنا نستغلها قبل ذلك فإذا هي عظيمة لها سبعة أبواب وهي في وسط خط من النخيل ومساحة المدينة بالتخمين نحو نصف فرسخ في مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب".

وبعـــد التحدّث عن قتل الأمير لأعيان المدينة، الذين اكتشف حياكتهم للمكائد ضده، يعود المؤلف ويصف لنا جامع الإباضيين في المدينة بقوله: "وهو مسجد متقن الصنعة مجصّص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتحسين الماء فأعجبني غاية". ويستمر في كلامه بالحديث عن الغرائب التي صادفته في زيارته للواحة، ومن الأمور التي وصفها بالغرابة والتي تستحق منا الوقوف عندها قليلا هي (كيفية استخراج الماء)، فقد جاء في وصفه لهذه العملية: "ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار فيحفرون بئرا نحو

---

1 أنظر أيضا في هذا الميدان كتاب: "J. Letilleux «Ouargla cité saharienne" وكتاب Rey. Capot الصحراء الفرنسية الذي يتحدث فيه بالتدقيق عن إنتاج هذه المنطقة الزراعية.

2 راجع كتاب الرحلة للعياشي.

من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفخ على وجه الأرض فينقرونه فإذ نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا.

فإن لم يتدارك الحافر بالجذف أغرقه الماء[1] ومتى احتاجت العيون إلى الكنس، حصلت لمتعاطي كنسها مشقة كبيرة وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر".

يستخلص من كلام العياشي أن في حفر الآبار بورقلة مشقة عظمى مردها إلى مميزات التربة التي سبق الحديث عنها، كما أن عملية تنظيفها المتكررة لا تخلو أيضا من الصعوبة، نظرا لكمية المياه الهائلة المتدفقة من البئر وللعمق الكبير الذي يميز أغلب هذه الآبار، الأمر الذي لا يسمح بتنظيفها بسهولة، فيضطر السكان إلى تركها على حالها وهذا الأمر قد يؤدي مع مرور الزمن إلى اندثارها وطمسها.

إن بروز مدينة ورقلة على الساحة الاقتصادية بين مدن الصحراء وحتى بين مدن الشمال كانت النتيجة الطبيعية لتحكمها في المسالك الصحراوية واستحواذها على تجارة العبور، حيث أهّلها موقعها بوصفه مجازا ما بين الشمال والجنوب[2] لتؤدي دورا بالغ الأهمية في هذا النوع من التجارة، ذلك أن الواحة تمثل ملتقى طرق القوافل التجارية التي تمر عبرها لتربطها بمناطق مختلفة كسجلماسة،[3] وتمبوكتو، وغانة، وتوات، وغرداية، وتلمسان، والجريد، ووادي سوف، وغدامس، وواحة سيوه .

وقد كانت طرق الشمال تصل عبرها إلى ورقلة القوافل المحمّلة بالمنتجات المختلفة لهذه المناطق سواء أكانت زراعية أو مصنعة. ومن بين السلع المتداولة في هذه التجارة نخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر الأواني النحاسية، ومنتجات الحديد والزّجاج، والعطور، والتمور، والتين المجفف، والمنسوجات المختلفة (قطنية، صوفية ، حريرية)،[3] والقمح، والملح، والجلود المدبوغة، والحلي، والخيول[4]. وكان أهل ورقلة بدورهم يتولون تصدير بعض هذه المواد إلى بلاد السودان، وقد أشار إلى هذا

---

1 إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى، ص 159.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 59.

3 Elsa Solal, les Ibadites en Afrique, D E A, université Aix en Provence, p. 78.
– اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 360

3 جودت عبد الكريم جودت، العلاقات الخارجية، ص 273

4 مؤلف مجهول، الاستبصار في غرائب الأمصار، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 214 وما يليها.

الأمر الشريف الإدريسي الذي جعل من تجار ورقلة وسطاء تجاريين بين سكان شمال أفريقيا وممالك بلاد السودان، ومن ورقلة مركز عبور تجاري مهم بين طرفي الصحراء الكبرى فيه تجمع السلع ومنها تحمل القوافل إلى بلاد السودان. يقول الإدريسي: "... وليس بعد أرض لملم في جهة الجنوب عمارة تعرف، وبلاد لملم تتصل من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء."[1]

وكانت المدينة تجلب من بلاد السودان خصوصا التبر،[2] ريش النعام، والعبيد.[3] وقد ساهم هؤلاء العبيد في استصلاح مساحات واسعة من الواحة، وكانوا يقومون بالأعمال الشاقة التي لا يقوم بها الأحرار وقد استعملوا أيضا كخدم في المنازل.[4]

إن موقع المدينة الذي يعد نقطة اتصال بين عالمين مختلفتين من حيث الحضارة، والمناخ، ومن حيث المنتجات الزراعية والمصنعة سينعكس إيجابا على تطور المدينة وازدهارها، حيث سيجعل نموها يتبع وتيرة سريعة [5] بفضل تداخل هذه الحضارات وانصهارها في بوتقة واحدة بما يخدم مصلحة المدينة، وقد تضفي عليها الثروات التي تزخر بها المنطقة وتلك التي تتلقاها المدينة عن طريق التبادل التجاري مسحة نوعية تساعد على تسارع نمو هذه المدينة في شتى مناحي الحضارة وهو ما سنحاول مناقشته في مايلي.

مراحل تطور التجارة في الصحراء:

عرفت الصحراء الكبرى ظاهرة استقرار التجمعات البشرية فيها منذ العهود المبكرة ، بدءا من مرحلة ما قبل التاريخ كما سبقت الإشارة إلى ذلك إلى يوم الناس هذا، وتتفق الآراء على أن سكان الصحراء الأوائل ليسوا من الجنس الأبيض. أما

---

1 الإدريسي، وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957، ص 5.

2 يقول الإدريسي: "... فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع" كتاب وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 9.

3 جودت عبد الكريم جودت، المرجع السابق، ص 276 وما يليها.

4 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 59.

5 Rey capot, le Sahara Français, p. 245 et s.

وصول هؤلاء البيض إلى الصحراء عموما وإلى ورقله خصوصا فلم يتم إلا في فترات متأخرة نوعا ما، ربما كان ذلك في العهد الروماني، وقد كانت أهم وسيلة استعملتها القبائل البربرية للتوغل في الصحراء هي الجمل.[1] إن هذا الحيوان الصّبور سيمكّن الإنسان من الانتصار على شساعة الرقعة، وشدة جفافها، وقلة مواردها، بالربط بين مسافاتها الطويلة. وللعلم أن الجمل ليس حيوانا صحراويا أصيلا بل جلب إليها من مناطق جغرافية أخرى[2]، فمن المعروف أن دخول الجمل إلى مصر إنما وقع نتيجة لغزو الفرس لها، ومن المحتمل أن يكون قد وصل إلى الصحراء الكبرى عن طريق مصر.

والجدير بالتنويه إليه أن الجمل الذي يعيش في صحرائنا جمل ذو سنم واحد، وهذا النوع من الحيوانات استطاع التكيّف مع طبيعة الصحراء وجعل منها موطنا له، لقد تعوّد هذا الجمل على الحشائش الخشنة الموجودة في الأراضي الصحراوية القاحلة فأضحت غذاءه اليومي. كما تأقلم أيضا مع ظاهرة قلة المياه فأصبح بإمكانه الاستغناء عنها لفترة زمنية طويلة الأمر الذي لا تقدر عليه بقية الحيوانات الأخرى، أضف إلى هذا أنه يستطيع مقاومة الحر والقر في النهار، والبرودة القاسية في الليالي الشتوية بفضل وبره الذي يمثل إحدى المواد الخام التي ساهمت في تنشيط اقتصاد المدينة.

يمتاز الجمل بالصبر وبالقدرة الكبيرة على تحمّل المشاق، وبإمكانياته الهائلة أيضا على حمل الأثقال والسير لمدة طويلة من الزمن.[3] مما جعل منه إلى وقت قريب وسيلة النقل الأولى في الصحراء دون منازع.

استخدم الجمل من طرف الجيوش الرومانية في مختلف الأغراض العسكرية فيما عدا القتال، أما البربر فقد استعملوه كوسيلة للمقاومة شأنهم في ذلك شأن الفرس وأداة للفر والهرب عندما يشتد الاضطهاد عليهم من طرف الرومان.

كان لظاهرة البداوة التي تميز بها سكان بلاد المغرب، التي غلب عليها طابع التنقل والترحال من المناطق السهبية والصحراوية إلى المناطق التلية صيفا بحثا عن الغذاء لمواشيهم والعودة إلى مضاربهم شتاء أثر كبير ساهم في تقويتها لهذا الحيوان وترسيخه، وبانتشار هذه الظاهرة تقلص نفوذ الرومان ومن جاء بعدهم من

1 F. De la chapelle, esquisse, p. 41.

2 إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 33-34.

3 Rey. Capot, le Sahara français. p 434 et s

المستعمرين المغتصبين للأراضي والقاهرين لأهلها، فتوسعت الأراضي المستقلة الخارجة عن نفوذهم نظرا لصعوبة التحكم في سكانها الرحل وعدم قدرة المستعمر على الصمود أمام ضرباتهم المتكررة.[1] لقد ساهم هذا الحيوان الصّبور في تمكين البربر والعرب من استغلال خيرات الصحراء الشاسعة، ومكّن سكان واحاتها من الاتصال فيما بينهم من جهة، وبالعالم الخارجي من جهة ثانية.[2]

وبناء على ما سبق يمكن القول أن وصول الجمل إلى منطقة ورقلة ساهم لا محالة في إخراج المنطقة وأهلها من العزلة المفروضة عليهم وإدخالهم في مختلف النشاطات الاقتصادية منها والاجتماعية والسياسية للمجتمعات القديمة .بما تعنيه الكلمة من معاني. إذن يستخلص من هذا كله أن الجمل أحدث ثورة كبيرة في مجال الاتصالات في المناطق الصحراوية، وربط بين واحاتها[3] ومناطق رعيها وجعل منها وحدة اقتصادية متكاملة، وأهلها مع مرور الزمن لربط علاقات وطيدة مع المناطق المحاذية لها، فقبل دخول الجمل إلى الصحراء كانت منطقة ورقلة تعيش شبه عزلة انطوت فيها على نفسها معتمدة في سدّ حاجات سكانها البسيطة على ما توفره المنطقة من وسائل العيش سواء كانت كافية أم غير كافية .بمعنى أنها كانت شبه مكتفية ذاتيا بالمفهوم الاقتصادي الحديث.[4]

وعلى الرغم من توفر المياه التي مكنت إنسان واحة ورقله من زراعة النخيل، وبعض أشجار الفواكه الأخرى، والحبوب، وبعض الخضار التي يمكن أن تنمو في هذه الظروف المناخية،[5] وعلى الرغم أيضا من وجود مراعي تعيش عليها العديد من قطعان الإبل والماعز والأغنام، فإن اقتصاد الواحة كان يفتقد لموارد ومنتجات المناطق الأخرى التي لا تنتج محليا.

إن وصول الجمل إلى الواحة جعل سكانها على غرار الواحات الأخرى يستعملونه كوسيلة نقل، سهلت ربطهم بالمناطق الأخرى، ومكّنتهم من افتكاك قسم

---

1 De la chapelle, esquisse, p. 45 et s.

2 إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 35 وما يليها.

3 المرجع نفسه، ص 42 - 43

4 وهذا ما يتم فعله عادة في الواحات حيث الزراعة تحت النخيل تقلل من عملية التبخر.

5 مازالت إلى وقتنا الحالي بعض المناطق تسد حاجاتها من الخضار .

من التجارة في ذلك الوقت مما جعل هذا الاقتصاد يحظى بمكانة مميزة بين اقتصاديات المدن الأخرى.

وعلى الرغم من أهمية الجمل للاقتصاد الصحراوي في القرون الوسطى، كونه الوسيلة الفريدة المستعملة في المسافات البعيدة لنقل البضائع،[1] فإن هذا الحيوان الصبور ماكان له أن يعيش في هذه الفيافي بدون مساعدة الإنسان.

أهمية ورقلة في التجارة مع بلاد السودان:

جاء في تعريف القزويني لبلاد السودان قوله أنها تلك البقعة من الأرض "التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البرادي وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط"[2]، وقد أظهرت البحوث الحديثة وجود علاقات وطيدة بين بلاد المغرب والسودان منذ أقدم العصور[3].

وتشير المصادر الإسلامية إلى أن العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء استقطبت جهود المسلمين منذ عهد الولاة.

إن أصحاب الأمر من السياسيين و العسكريين والتجار في تلك الحقبة كانوا واعون بأهمية إفريقيا السوداء من الناحية الاقتصادية، فهم على علم بغناها بالمواد المنجمية وخاصة مادة الذهب.[4] ويرون في إنتاجها الزراعي والحيواني بابا كبيرا للرّبح لاختلافه عن إنتاج بلاد الإسلام مغربا ومشرقا ودول العالم الوسيط الأخرى، هذا الأمر دفع بعبد الرحمن بن حبيب الفهري حاكم افريقية (127-137هـ / 744-754م) للعمل على تهيئة الظروف الملائمة لإنجاح عملية التبادل التجاري بين المنطقتين، فاختار لهذا الأمر المسالك وجهّزها بسلسلة من الآبار.[5]

يفهم مما سلف أن الاتصالات ظهرت بين طرفي الصحراء الكبرى في المرحلة الإسلامية المبكرة قبل عهد الدويلات.

---

1 Rey. Capot Le Sahara français. p. 433.

2 القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صابر، بيروت، ص 24.

3 جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، 1984، ص 233.

4 Marcel Emerit, les liaisons terrestres entre les soudans et l'Afrique du nord au XVIII et au début du XIX siècle Nouveaux de l'institut de études saharienne 1954 p 20.

5 البكري، كتاب المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، طبعة باريس، 1965، ص 156-157.
للمزيد أنظر: مبارك بوطارن، تطور العمران الإسلامي، دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة الجزائر، 2007، ص 322.

أما العهد الرستمي فقد ازدادت فيه هذه العلاقة قوة ومتانة، وكانت حركتها التجارية مع بلاد السودان أهم مواردها الاقتصادية،[1] وقد أثبتت كتب التاريخ وجود اتصالات شخصية عن طريق الرسل بين أئمة الدولة الرستمية في تاهرت وملوك بعض ممالك إفريقيا جنوب الصحراء في ذلك الوقت، وقد أشار ابن الصغير إلى إرسال الإمام أفلح محمد بن عرفة بن طرف [2] يحمل هدية فاخرة إلى ملك كوكو[3] إحدى مماليك السودان [4] وقد قبلت هذه السفارة برضا الملك والثناء عليه حيث جاء في مدحه له على لسان ابن الصغير: "أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأعمال"[5]*

لعل ما يستخلص من هذه العبارة هو إعجاب ملك كوكو بشخصية ابن عرفه رسول الإمام أفلح، وبثقافته ولطفه وهيئته، ولم يخف فرحته بهذه الهدية الوقع الذي تركته في نفسيته، فكان لهذه الصفات التي امتدح بها ابن عرفة أكبر الأثر في توطيد عرى المودة بينه وبين الإمام أفلح.

ورقلة مرحلة مهمة في طريق السودان:

ارتبطت الدولة الرستمية على العموم وعاصمتها تاهرت على الخصوص بإفريقيا جنوب الصحراء عبر طريقين هامين هما:

1- الطريق الغربي: ويمر بسجلماسة[6] عاصمة دولة بني مدرار ويسير محاذيا للبحر. ذلك أن موقع مدينة سجلماسة كان يتوسط طريق التجارة الرابط بين الشمال والجنوب (أي مدن العالم الإسلامي وبلاد السودان). وإذا كان من الصعب تحديد تاريخ بداية استخدام هذه الطريق من قبل القوافل التجارية، نظرا للصمت الذي ميز المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية حول هذه النقطة، إذا ما استثنينا من ذلك ابن

---

1 Cheik Bekri, le kharijisme berbère, A, I, E, O, p. 104.

2 محمد بن عرفة من الشخصيات المقربة إلى الإمامين أفلح وابنه أبي بكر حيث يذكر ابن الصغير أن ابن عرفة كانت له علاقة مصاهرة بأبي بكر بن أفلح الذي تزوج أخته أو ابنته كما تزوج هو أيضا أخت أبي بكر. وقد كانت لهذه العلاقة دورا كبيرا في تقريبه من الإمام أبي بكر إلى درجة أصبح يشارك فيها الإمام تسيير شؤون الدولة. أنظر: كتاب أخبار الأئمة الرستميين، ص 63- 64.

3 لم تذكر لنا المصادر اسم هذا الملك ولا المملكة التي يحكمها.

4 ابن الصغير، المصدر السابق، ص31

5 المصدر نفسه والصفحة.

6 جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 265 وما يليها.

عبدالحكم الذي أشار إلى قافلة تجارية ناجحة قادها شخصية تدعى عبيد الله حبيب الفهري إلى كل من منطقة السوس وأرض السودان وعادت من هذه المناطق محملة بكميات كبيرة من الذهب والعبيد،[1] فإن غالبية المصادر التاريخية لم تشر إلى هذه الطريق قبل هذه الفترة كون أن ما كتب حول الجهة لا يعدو إشارات بسيطة إلى المنطقة على هامش بعض الحوادث التاريخية، ومع ذلك فإذا كنا نجهل البدايات الأولى لاستغلال هذه الطريق، فإنه من المرجح أن تكون قد عرفت استخدامها بصفة مكثفة من طرف القوافل التجارية مع تأسيس مدينة سجلماسة التي باتت محطة تجارية جهوية مهمة في طريق التجارة الرابط بين شمال المغرب الإسلامي على وجه الخصوص، وبلاد الإسلام على وجه العموم من جهة، وبلاد السودان جنوب الصحراء من جهة ثانية خاصة بعد أن أصبح الطريق الشرقي الرابط بين البلاد الإسلامية وبلاد السودان غير آمن وهو ما تؤكده بعض المصادر التاريخية.[2]

2- طريق شرقي: ويمر بواحة ورقلة، وإذا كان الأول لا يدخل في صلب بحثنا، فإن الطريق الثاني هو الذي يهمنا باعتبار أن مدينة ورقلة تمثل إحدى محطاته الهامة.[3]

كانت ورقلة في عهد الرستميين تحت سلطة أئمة تاهرت، لذا حضيت باهتمام كبير من طرف أمراء الدولة وتجارها، فكان التاجر يخرج من عاصمة الدولة تاهرت إلى حصن ابن كرام عبر المتيجة، ومنه يأخذ الطريق إلى إمارة هاز العلوية، ثم إلى بلد بني دمر وهم إحدى فروع قبيلة زناتة الذين كانوا يعيشون على الترحال في منطقة تبعد بمرحلة عن إمارة هاز، ثم يتوجه التجار إلى مدينة أربة بوابة الزّاب من

---

1 ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، بيروت، 1964، ص94

2 يقول ابن حوقل،"... وفيها الطريق من مصر إلى غانه فتواترت الرياح على قوافلهم ومفرد تهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة". كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص 65

- يرجع صاحب كتاب الاستبصار ترك تجار القوافل هذا الطريق إلى ندرة المياه حيث يقول: "بلاد الواحات: وهي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين بلاد افريقية وبلاد مصر، ولولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من أفريقية إلى مصر على الواحات أقرب". مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 147.

3 الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 91 وما يليها.

جهة الغرب، ومنها إلى مقرة التي يسكنها قوم من العجم وحولها قوم من البربر، ومن بني تميم ومن هذه المدينة تواصل القوافل السير إلى طبنة العاصمة الإقليمية للزّاب ومقام الوالي ومنها تتوجه إلى بسكرة وهي مدينة كبيرة كثيرة النخيل والخضار، والمدينة مصورة عليها حائط وخندق[1] ومن بسكرة يتوجه التجّار إلى ورقلة عاصمة التجارة الصحراوية، ونقطة تجمع القوافل قبل الانطلاق في أصعب قسم وأخطره من الرحلة إلى الضفّة الأخرى من الصحراء .

وعلى حسب روايات الجغرافيين و المؤرخين العرب، تبعد ورقلة عن مدينة المسيلة باثنتي عشرة مرحلة[2] أي أن المسافة بين طبنة وورقلة تقدر بحوالي عشرين مرحلة.

إن المصادر الإسلامية التي تكلمت عن ورقلة لا تعد قليلة فحسب، بل إن هذا الترر القليل يعد شحيحا من حيث حجم المعلومات التي نقلتها خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمرحلة المبكّرة من الحقبة الإسلامية. ومع هذا يظهر من دراسة هذه المصادر أن أهل المدينة كانوا من الأغنياء يتاجرون مع إفريقيا جنوب الصّحراء و يتجوّلون في مسالكها وممالكها بحثا عن الفرص التجارية، فكانوا يصدّرون الملح والنحاس وبعض المنتجات المغربية ويستوردون الذهب وبعض المواد المصنعة الأخرى.

لقد أدت كلا من مدينتي ورقلة وسجلماسة دورا هاما في التجارة مع بلاد السودان. وإذا كانت سجلماسة الصفرية عاصمة لبني مدرار وأم قرى دولتهم، فإن ورقلة كانت هي الأخرى أهم ميناء صحراوي بالنسبة لتاهرت الإباضية عاصمة دولة بني رستم. تلك المرحلة الزمنية التي شهدت فيها مدينة ورقلة رخاء اقتصاديا لا نظير له، كان فيها لعاملي الأمن والاستقرار دورا بالغ الأهمية في ازدهار اقتصادها، لكن هذا الرخاء الاقتصادي، وهذه السمعة الطيبة التي عرفت بها المدينة ــ إلى درجة تعدت فيها حدود بلاد المغرب الإسلامي ــ لم يكتب له الاستمرار بالوتيرة نفسها ، إذ سرعان ما تفشت فيها الفوضى والقلاقل بسبب غزو قبائل بني هلال العربية لأفريقية، وللمناطق المجاورة لها وتضييقهم الخناق على أهلها، وما ترتب عن هذا الأمر من هجرات سكان المنطقة وترك مدنهم بحثا عن الأمن والاستقرار الذين طالما افتقدوهما أثناء هذا الغزو الهلالي، فكان لورقلة نصيبها من هجرة سكان المناطق

---

1 البكري، المصدر السابق ص 52.

2 الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص 88-120.

القريبة منها الذين قصدوها هروبا من بطش الهلاليين، وباستقرارهم بها أصبحت التركيبة البشرية للمدينة مكونة من مجموعة من الأعراق التي تتبع مذاهب دينية مختلفة، الأمر الذي جعل المدينة تدخل في مرحلة من الصراعات القبلية. وما زاد في تغذية هذه الصراعات مكانة المدينة الاقتصادية التي جعلت سكان بلاد المغرب الإسلامي يتهافتون عليها فأصبحت مع مرور الزمن محط أطماع حكام بعض دول بلاد المغرب[1] بدءا بالسلطان الحمادي الناصر الذي ألحقها بدولته في منتصف القرن الخامس الهجري وولى عليها حاكما مواليا له، ومرورا ببعض الثورات الداخلية التي أضعفت المدينة، وانتهاء بثورة ابن غانية الذي سيطر على كل الصحراء وأصبح يجوب الصحراء بجيوشه دون رادع، يغزو ويدمر كل من يقف في وجهه، فتمكن من تخريب مدينة ورقلة سنة 626 هـ / 1129م بعد أن دمر قبلها مدينة تاهرت في سنة 606 هـ /1209م[2] لتكون بذلك بداية انهيار دولة الخوارج في بلاد المغرب كدولة قائمة بذاتها سياسيا واقتصاديا في كل من تاهرت وورقلة، تلك الدولة التي كانت تحسب لها بقية الدول ألف حساب، تهابها دول وتستملها أخرى ليتراجع معها دور ورقلة الاقتصادي الهام بين مدن الصحراء والشمال، ولتتراجع مكانتها بين بقية المدن بعد أن هجرت أهم المراكز الإباضية المحيطة بها مثل سدراته وانسحاب بقية الخوارج منها إلى منطقة وادي ميزاب أمام الهجمات المتكررة عليها من طرف بعض أمراء الدول المجاورة لها.[3]

وخلاصة القول أن مدينة ورقلة التي تعد إحدى مدن الجزائر القديمة إن لم تسترع انتباه المؤرخين والجغرافيين القدامى، وإن لم تحظ بقدر كاف من الدراسات الحديثة، فهذا لا يعني أن المدينة لم يكن لها شأن بين المدن الإسلامية الصحراوية في العصر الوسيط، بل بالعكس فمن خلال هذه الدراسة المتواضعة تبين لنا أن المدينة كانت تحظى بمكانة مرموقة بين مدن تلك الفترة الزمنية، ذلك أن هذه الدراسة سمحت لنا بالخروج بجملة من النتائج نوجزها في ما يلي:

أولا: إن المدينة كما يتضح من موقعها أنشئت في بيئة صحراوية طاردة كما يبدو للدارس في أول وهلة، ولكننا نعتقد أنه لولا وجود الشروط الواجب توفرها في إنشاء المدن قديما كما عددها الجغرافيون العرب من ماء ومحطب ومرعى وميرة لما غامر أهلها بإنشائها في هذا المكان الصحراوي.

---

1 ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص 285.

2 Madelaine Rouvillois – Brigol, le pays de Ouargla, Paris, 1975, p. 20.

3 Ibid, p 22.

ثانيا: إن وقوع المدينة بين عرقين شرقي وغربي وعلى مسافة متوسطة بين الشمال والجنوب،جعل المدينة تكتسب مكانة مهمة في تجارة القوافل بين مدن شمال أفريقيا ومدن جنوب الصحراء لأنها كانت تمثل الممر الوحيد وسط الصحراء الوسطى إلى مدن بلاد السودان، فكان المرور بها ضرورة حتمتها الظروف الطبيعية مما جعلها مركز عبور مهم لقوافل التجارة، وقد أدى هذا إلى رفع درجة تجارها ليصبحوا مع مرور الزمن وسطاء لتبادل البضائع بين تجار الشمال وتجار أفريقيا ناهيك عن احترافهم مهنة تجارة القوافل مع دول بلاد السودان لمعرفتهم بأهم مسالك المنطقة التي اكتسبوها عن طريق الممارسة.

ثالثا: لقد ساهمت العوامل السالفة الذكر في نمو المدينة وتطورها عمرانيا واقتصاديا، ما أهل المدينة لكي تصبح محطة تجارية مهمة في طريق التجارة الرابط بين الشمال وبلاد السودان وقد كان للجانب التجاري أثره على ازدياد عدد السكان بها وعلى نماء المدينة وتوسعها ورفع مكانتها بين بقية المدن.